من اقاصيص الأولين

اختيار وتقديم
الدكتور محمد احمد خلف الله

- ١ -

كان بين المنادرة والاكاسرة صلات حسنة ايام الجاهلية ، وكانت الرسل تغد فيما بينهما تحمل الهدايا من وافى كل منهما .

وكان عدى بن زيد الشاعر المعروف واحدا من هؤلاء الرسل ، ووفد ذات يوم الى المنذر بن المنذر يحمل هدية كسرى اليه ، واتفق اثناء مقامه عند المنذر أن دخل بيعة من البيع تقربا الى الله ، فرأى في البيعة فتاة برزة جميلة وقع في هواها في الحال .

كانت هذه الفتاة هند بنت النعمان ابن المنذر التي ولدت له من مارية الكندية .

ويروى الرواة قصة هند مع عدى أو قصة عدى مع هند على الوجه التالي

***

قال ابن ابي سعد ، وذكر ذلك خالد بن كلثوم أيضا .

قالا : كان سبب عشقه اياها ان هندا كانت من اجمل نساء اهلها وزمانها ، وامها مارية الكندية ، فخرجت في خميس الفصح وهو بعد النعمان بثلاثة ايام ، تتقرب في البيعة ، ولها حينئذ احدى عشرة سنة ، وذلك في ملك المنذر .

وقدم عدى حينئذ بهدية من كسرى الى المنذر ، والنعمان يومئذ فتى شاب، فاتفق دخولها البيعة وقد دخلها عدى ليتقرب .

كانت مديدة القامة عبلة الجسم ، فرآها عدى وهي غافلة فلم تنتبه له حتى تاملها .

وقد كان جواريها راين عديا وهو مقبل فلم يقلن لها ذلك ، كي يراها عدى ، وانما فعلن ذلك من اجل امة لهند يقال لها مارية ، وقد كانت احبت عديا فلم تدر كيف تاتي له .

فلما رات هند عديا ينظر اليها شق ذلك عليها ، وسبت جواريها ونالت بعضهن بضرب .

ووقعت هند في نفس عدى ، ولبث حولا لا يخبر بذلك احدا .

فلما كان بعد حول وظنت ماريه ان هندا قد اضربت عما جرى وصفت له بيعة توما ، ووصفت لها من فيها من الرواهب ، ومن ياتيها من جوارى الحيرة ، وحسن بنائها ومسرجها ، وقالت لها :

ـ سلى امك الاذن لك فى اتيانها .

فسالتها ذلك فاذنت لها .

وبادرت ماريه الى عدى فاخبرته الخبر فبادر فلبس يلمعا كان قد كساه اياه ـ فرحتشاه مرد ـ وكان مذهبا لم ير مثله حسنا ـ وكان عدى حسن الوجه ، مديد القامة ، حلو العينين ، حسن المبسم ، نقى الثغر واخذ معه جماعة من فتيان الحيرة ، فدخل البيعة .

فلما رأته ماريه قالت لهند :

انظرى الى هذا الفتى ، فهو والله احسن من كل ما ترين من السرج وغيرها .

قالت : ومن هو ؟ .

قالت : عدى بن زيد .

قالت : اتحاقين أن يعرفنى ان دنوت منه لأراه من قريب ؟ .

قالت : ومن أين يعرفك وما رآك قط من حيث يعرفك ؟ .

فدنت منه وهو يمازح الغيان الذين معه وقد برع عليهم بجماله ، وحسن كلامه وفصاحته ، وما عليه من الشباب . فدهلت لما رأته وبهتت تنظر اليه .

وعرفت ماريه مانها وبينته فى وجهها ، فقالت لها .

ـ كلميه .

فكلمته ، وانصرفت وقد تبعته نفسها وهويته ، وانصرف بمثل حالها .

فلما كان الغد تعرضت له ماريه ، فلما رآها هش لها ، وكان قبل ذلك لايكلمها ، وقال لها :

ماعندك ؟

قالت : حاجة اليك .

قال : اذكريها ، فوالله لاتسالينى شيئا الا اعطيتك اياه . عرفته انها تهواه ، وان حاجتها الخلوة به على ان تحتال له فى هند ، وعاهدته على ذلك ، فادخلها حانوت حمار فى الحيرة ووقع عليها .

ثم خرجت فاتت هندا ، فقالت :

ـ اما تشتهين ان ترى عديا ؟

قالت : وكيف لى به ؟

قالت : اعده مكان كذا وكذا فى ظهر القصر وتشرفين عليه .

قالت : افعل .

فواعدته الى ذلك المكان ، فاتاه وأشرفت هند عليه ، فكادت تموت .

وقالت : ان لم تدخليه الى هلكت .

فبادرت الامة الى النعمان فاخبرته خبرها وصدقته ، وذكرت انها قد شغفت به ، وان سبب ذلك رؤيتها اياه فى يوم الفصح ، وانه ان لم يزوجها به افتضحت فى امره او ماتت .

فقال لها : ويلك ! وكيف ابدؤه بذلك ؟

فقالت : هو ارغب فى ذلك من ان تبداه انت ، وانا احتال فى ذلك من حيث لايعلم انك عرفت امره .

وأتت عديا فاخبرته الخبر ، وقالت :

ـ ادعه ، فاذا أخذ الشراب منه فاخطبه فانه غير رادك .

قال : أخشى أن يغضبه ذلك فيكون سبب العداوة بيننا .

قالت : ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه .

فصنع عدي طعاما واحتفل فيه ، ثم أتى النعمان بعد الصبح بثلاثة أيام ، وذلك في يوم الاثنين ، فسأله ان يتغدى عنده هو وأصحابه ، ففعل ـ فلما أخذ منه الشراب خطبها الى النعمان ، فاجابه وزوجه وضمها اليه بعد ثلاثة أيام .

ويقول الرواة : انها ترهبنت بعد ثلاث سنين ، ومنعته نفسها ، وحبست نفسها في الدير المعروف بدير هند في ظاهر الحيرة حتى ماتت .

ويقول الرواة : كانت وفاتها بعد الاسلام بزمان طويل في ولاية المغيرة ابن شعبة الكوفة . وخطبها المغيرة فردته .

تحدث ابن سعد قال : مر المغيرة بن شعبة لما ولاه معاوية الكوفة بدير هند، فنزل ودخل على هند بنت النعمان بعد ان استاذن عليها ، فاذنت له فجلس عليه ، ثم قالت له :

ـ ما جاء بك ؟

قال : جئتك خاطبا .

قالت : والصليب لو علمت ان في خصلة من جمال أو شباب رغبتك في لاجبتك ، ولكنك اردت أن تقول في المواسم :

ـ ملكت مملكة النعمان بن المنذر ، ونكحت ابنته . فبحق معبودك أهلا اردت ؟

قال : اي والله .

قالت : فلا سبيل اليه .

فقام المغيرة وانصرف .

ـ ٢ ـ

كان قيس بن الخطيم يجهل ان أباه وجده قد قتلا . وكانت أمه تخشى مصير ابيه وجده ان هو هم بالاخذ بالثار ـ لذا عمدت الى اقناع ابنها بان أباه وجده قد ماتا ميتة طبيعية لاقتل فيهما ولا ترصد .

اقتنع الابن فترة من الزمن ، ومضت الامور على ما قدرت أم قيس ، ولكن الاحداث لم تلبث ان كشفت عن الحقيقة فاندفع الابن الى الاخذ بالثار ممن قتل أباه وممن قتل جده .

وتلك قصة قيس من قاتل ابيه وقاتل جده كما رواها الاقدمون .

***

حدث أبو عبيدة عن محمد بن عمار بن ياسر ، وكان عالما بحديث الانصار، قال :

كان قيس يوم قتل ابوه صبيا صغيرا ، وقتل الخطيم قبل ان يثار بابيه عدي .

وخشيت أم قيس على ابنها ان يخرج فيطلب بثار أبيه وجده فيهلك ، فعمدت الى كومة من تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها أحجارا وجعلت تقول لقيس : هذا قبر ابيك وجدك .

كان قيس لايشك ان ذلك على ذلك.

وشا ايدا شديد الساعدين ، فنازع يوما فتى من فتيان بني ظفر ، فقال له ذلك الفتى :

ـ والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل ابيك وجدك لكان خيرا لك من ان تحرجهما على .

فقال : ومن قاتل ابي وجدي ؟

قال : سل امك تخبرك .

فاخذ السيف ووضع قائمه على الارض وذبابه بين ثدييه وقال لامه :

ـ اخبريني من قتل ابي وجدي ؟

قالت : اماتا كما يموت الناس وهذان قبراهما بانقاء .

فقال : والله لتخبرينني من قتلهما او لاتعاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري .

فقالت : اما جدك فقتله رجل من بني عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ، واما ابوك فقتله رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر .

قال : والله لا انتهي حتى اقتل قاتل ابي وجدي .

فقالت : يابني ان مالكا قاتل جدك من قوم خداش بن زهير ، ولابيك عند خداش نعمة هو لها شاكر ، فاته فاستشره في امرك واستعنه يعنك .

خرج قيس من ساعته حتى اتى جمله وهو يسقي نخله ، فضرب الحرير بالسيف فقطعه ، فسقطت الدلو في البئر . واخذ براس الجمل فحمل عليه عرارتين من تمر ، وقال :

من يكفيني امر هذه العجوز ؟ ـ يعني امه ـ فان مت انفق عليها من هذا الخائط ـ البستان ـ حتى تموت ثم هو له . وان عشت فمالي عائد الي . وله منه ما شاء ان ياكل من تمره .

فقال رجل من قومه : انا له .

فاعطاه الخائط ثم خرج يسأل عن خداش بن زهير حتى دل عليه بمر الظهران ، فصار الى خبائه فلم يجده ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها اضيافه .

ثم نادى امراة خداش : هل من طعام ؟

فاطلعت اليه فاعجبها جماله ، وكان من احسن الناس وجها ، فقالت :

والله ما عندنا من نزل نرضاه لك الا تمرا .

فقال : لا ابالي ، فاخرجي ما كان عندك .

فارسلت اليه بقباع فيه تمر ، فاخذ منه تمرة فاكل شقها ورد شقها الباقي في القباع ، ثم امر بالقباع فادخل على امراة خداش بن زهير ، ثم ذهب لبعض حاجاته .

رجع خداش فاخبرته امراته خبر قيس فقال :

ـ هذا رجل متحرم .

اقبل قيس راجعا وخداش مع امراته ياكل رطبا ، فلما راى خداش رجله وهو على بعيره قال لامراته :

ـ هذا ضيفك ؟

قالت : نعم .

قال : كان قدمه قدم اخطيم صديقي البشربي

فلمـــا دنا قيس قرع طنب البيت بسنان رمحه واستاذن ، فاذن له خداش فدخل اليه .

نسبه فانتسب واخبره بالذى جاء له ، وساله ان يعينه وان يشير عليه فى امره ، فرحب به خداش وذكر نعمـــة ابيه عنده وقال :

ـ ان هذا الامر مازلت اتوقعه منـك منذ حين . فاما قاتل جدك فهو ابن عم لى وانا اعينك عليه ، فاذا اجتمعنـا فى نادينا جلست الى جنبه وتحدثت معه ، فاذا ضربت فخذه فاثب اليه فاقتله .

قال قيس : فاقبلت معه نحوه حتى قمت على راسه لما جالسه خداش ،ضربت ضرب فخذه ضربت راسه بسيف يقال له : ذو الخرصين ، فشار الى القـــوم ليقتلونى ، فحال خداش بينهم وبينى وقال :

ـ دعوه فانه والله ما قتـل الا قاتل جده .

ثم دعا خداش بجمل من ابله فركبه، وانطلق مع قيس الى العبدى الذى قتل اباه حتى اذا كان قريبا من هجر اشار عليه خداش ان ينطلق حتى يسأل عن قاتل ابيه ، فاذا دل عليه قال له :

ـ ان لصا من لصـــــوص قومك عارضنى فاخذ متاعا لى ، فسألت من سيد قومه فدللت عليك . فانطلق معى حتى تاخذ متاعى منه ، فان اتيعلىوخذه فستنال ما تريد منه ، وان اخرج معه غيره فاضحك ، فان سألك لم ضحكت فقل : ان الشريف عندنا لايصنع كمـا صـــنعت اذا دعى الى اللص من قومه ، انما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ،

فاذا رآه اللص اعطى كل شى، اخذ هيبه له ، فان أمر اصحابه بالرجوع فسبيل ذلك ، وان ابى الا ان يمضوا معه فاثنى به ، فانى ارجو ان تقتلـه وتقتـــل اصحابه .

ونزل خداش تحت ظـــل شجرة ، وخرج قيس حتى اتى العبدى فقال له ما امره خداش فاحطه ، فامر اصحابه فرجعوا ومضى قيس . فلمـــا طلع على خداش قال له :

ـ اختر يا قيس اما ان اعينك واما ان اكفيك .

قال : لا اريد واحدة منهما . ولكن ان قتلنى فلا يقتلنك .

ثم ثار اليه فطعنه قيس بالحربة فى خاصرته فانفذها من الجـــانب الآخر فمات مكانه .

فلما فرغ منه قال له خداش .

انا ان فررنا الآن طلبتنـا قومه ، ولكن ادخل بنا مكانا قريبا من مقتله ، فان قومه لايطلبون انك قتلته واقمت قريبا منه ، ولكنهم اذا اقتفوه اقتفوا اثره . فاذا وجدوه قتيـلا خرجوا فى طلبنا فى كل وجه . فاذا يئســـــوا رجعوا .

قال الرواة . فدخـلا فى دارات من رمال هناك . وفقد العبـــــدى قومه فاقتفوا اثره فوجدوه قتيلا . فخرجوا يطلبونهما فى كل وجه ثم رجعـــوا . فكان من امرهم ما قال خداش .

أقاما مكانهما اياما ثم خرجا . فلم يتكلما حتى اتيا منزل خداش ، ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع الى اهله .